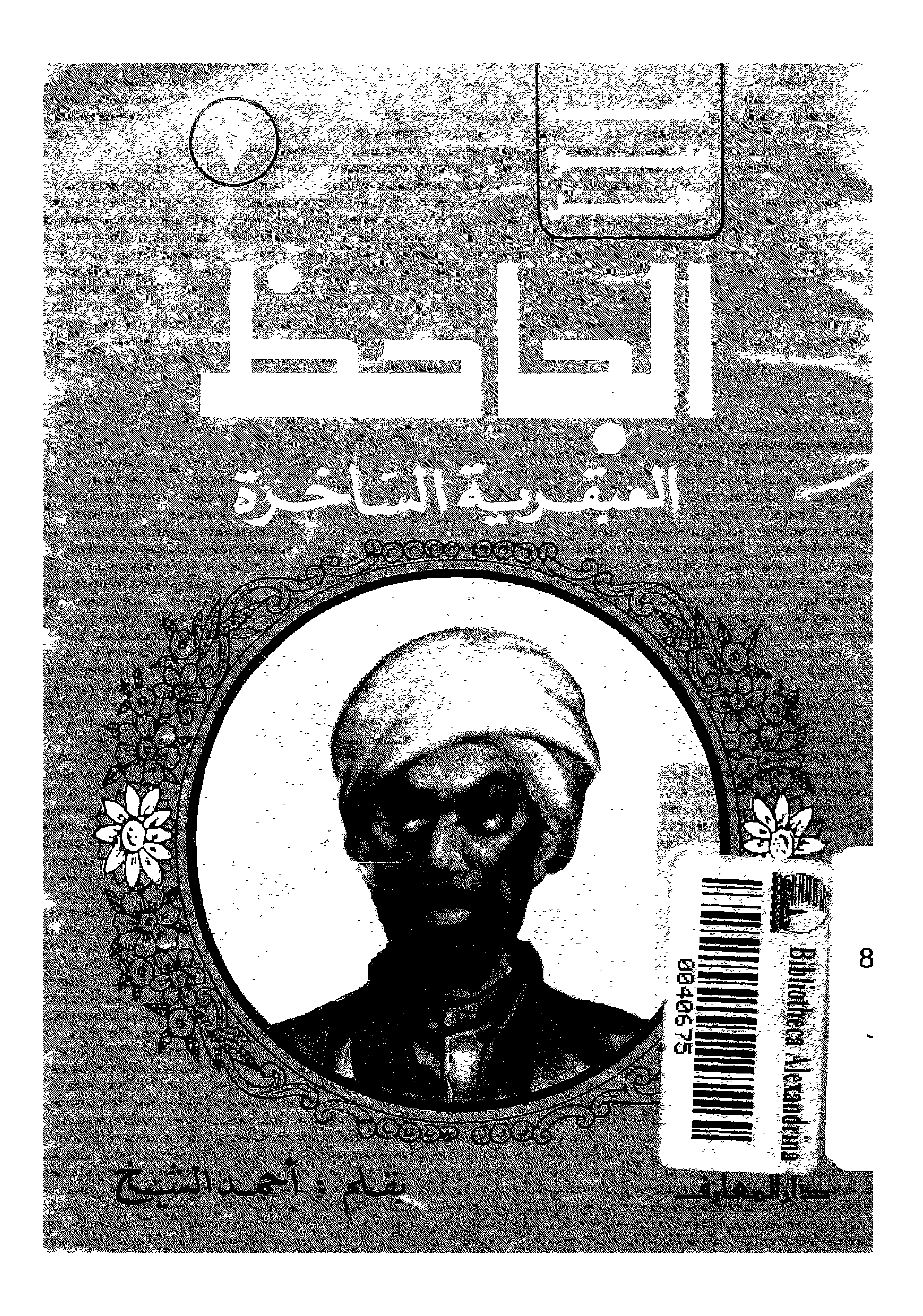

الجاحظ
العبقرية الساخرة
بقلم : أحمد الشيخ
دار المعارف
Bibliotheca Alexandrina
0040675

عظماء.. عاشوا بالأمل (٧)

الجاحظ

فاضل

العبقرية الساخرة

أحمد الشيخ



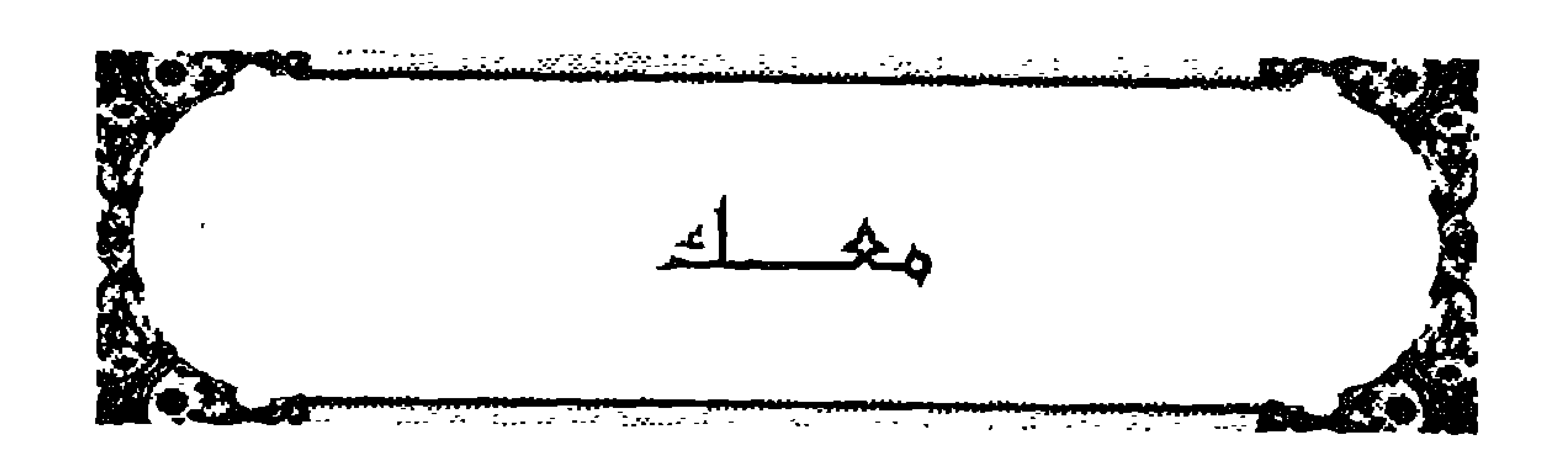
دار المعارف

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

[إن العيون تخطئ ..
وإن الحواس تكذب
وما الحكم القاطع إلا للذهن
وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل :
فهو زمام على الأعضاء
وعيار على الحواس !]

الجاحظ



حكايتنا هذه المرة عن أديب وفيلسوف وعالم عربى ، ولد وعاش فى أزهى العصور الإسلامية فى عصر الدولة العباسية ، التى حكمت العالم الإسلامى من بغداد ، ولد فى سنة ١٥٩ هجرية ، وعاصر فى حياته الخلفاء العباسيين : المهدى والهادى والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق ، ومن بعدهم عاش فى أواخر أيامه فى ظل حكم المتوكل والمنتصر والمستعين بالله والمعتز بالله ، حيث رحل عن هذه الدنيا بعد أن عاش ما يزيد على تسعين عامًا ، كتب خلالها ما يزيد على ثلاثمائة وخمسين كتابًا فى الفلسفة والأدب والتاريخ والجغرافيا والاجتماع وغيرها من العلوم .

اسمه عمرو بن بحر بن محبوب

وكان ينادى بأبى عثمان .

لكنه عرف للأدباء والشعراء والخلفاء والعلماء باسم آخر اشتهر به ، وشاع عنه ، وهو الجاحظ ، ولهذا الاسم الأخير قصة ، كان لعمرو بن بحر منذ صباه عينان جاحظتان ، أى « بارزتان » كبيرتان بشكل ظاهر ، فكانوا يقولون عنه جاحظ العينين ، أو الجاحظ ، ومن يومها شاع الاسم وانتشر إلى وقتنا الحاضر .



جمال الوجه أم جمال الروح

لابد أننا جميعًا نحب الجمال ، ولابد أن وجهًا جميلا نراه أفضل بكثير من وجه قبيح ، لكننا لو فكرنا قليلا لاكتشفنا أن جمال الوجه لا يساوى جمال الروح .. وكم من وجه جميل فقد الروح الجميلة ، وكم من وجه قبيح امتلك روحًا جميلة ، وقلبًا كبيرًا ، الجمال إذن لا يقاس بالوجه وحده .. وحلاوة الروح وجمالها لا تتأثر بالوجه ، حتى ولو كان الوجه قبيحًا ، وعندنا فى حياة عمرو بن بحر ، أو الجاحظ كما كانوا يسمونه ومازلنا نسميه ، ما يؤكد ذلك .

لم يكن مجرد بروز عينيه أو جحوظهما هى الصفة الوحيدة له ، بل إنه كما قال من عاصروه وقال هو عن نفسه : كان قصير القامة ، مشوه الوجه ، بل قبيح المنظر ، أسود

البشرة أيضًا ، ها هى ذى كل الصفات غير الجميلة تجتمع فى صبى دون أن يختار ، كانت هذه الصفات قادرة — لولا جمال روحه — أن تبعث اليأس فى قلبه ، لكنه فاجأ كل من عاشوا فى عصره بصفاء روحه ، ومرح طباعه ، منفتح العقل يبحث دائمًا عن الأمل فى الحياة ، بل إنه كان يقابل سخرية الناس من وجهه بابتسامة أو ضحكة .

كان فى بعض الأحيان يسخر من نفسه ، ويضحك مع الآخرين على ملامحه ، لدرجة أنهم بعد ذلك ما عادوا يهتمون بتلك القامة القصيرة ، أو الوجه القبيح ، كانوا يعشقون الحديث إلى روحه السمحة ، وقلبه الكبير ، وكانوا يفرحون عندما يحدثهم بعقله الذكى ، أو يكتب لهم بقلمه البارع ، وها نحن الآن نذكره بحب بعد ما يزيد على الألف سنة منذ رحيله عن هذه الدنيا ، نحن لا نراه الآن ، وإن كنا نقرأ بعض ما تركه لنا من مؤلفات كثيرة ، ونحن نصدق أيضًا ما قاله الحكماء فى الزمن القديم عن جمال الروح ، ووسامة النفس الكبيرة ووعى العقل بدوره فى هذه الحياة ..

ولا يمكن أن نقول مثلا : إن عمرو بن بحر أو الجاحظ لم يتألم بسبب هذه الصفات ، وهذا القبح ، لابد أنه تألم ،

لكنه عرف كيف يتخلص من هذا الألم يومًا ، أو قل : إنه جعل هذا الألم وسيلة للتفوق ، وكما قال حكيم آخر : « لا شيء يجعلنا عظماء سوى ألم عظيم » ولو فكرنا فى حياة الكثير من عظماء العالم لعرفنا أنهم تألموا كما تألم الجاحظ يومًا .



سخرياته من نفسه

كان الجاحظ يعرف أن قسوة الحياة لابد أن تقابل بشيء من المرح وخفة الظل ، فكان ينظر إلى الدنيا نظرة المتفائل المقبل على الحياة بروح سمحة ، كان يخلط الجد بالهزل أحيانًا ، ويرى أن الجد دائمًا لا يحتمل ، كما أن الهزل الدائم لا يحل مشاكل الحياة .. كان يمزج المرح بالجد إذن ، وكما يقول الحكماء : « لكل مقام مقال » فما دام الوقت يدعو إلى المرح فلا بأس إذن من المرح .

يقول عن نفسه : إنه كان جالسًا فى السوق ، ومرت به سيدة تضع على وجهها نقابًا فجذبته من يده ، وبرغم أنه لم يعرفها فقد سار معها دون أن يعرف غرضها ، أو إلى أين هى ذاهبة ، وعندما وقفت أمام صائغ أوقفته ونادت صاحب دكان الصياغة وأشارت إلى الجاحظ قائلة :

– هو مثل هذا .

ثم تركت المكان وابتعدت ، واحتار الجاحظ فى أمره ، فلا هى دعته لأن يمشى معها مرة أخرى ، ولا اعتذرت له .. وعندما فكر فى الرحيل قال لنفسه : أسأل الرجل عن هذه السيدة ، وبالفعل سأل الصائغ :

– هذه السيدة جاءت بى وتركتنى عند باب دكانك ولا أعرف لماذا ؟

فضحك الصائغ كثيرًا قبل أن يجيبه :

– لقد طلبت منى هذه السيدة أن أرسم لها صورة الشيطان على خاتم يخصها . وقلت لها : يا سيدتى وكيف أرسم الشيطان وأنا لم أره فى حياتى ؟ فقالت لى : انتظر ، فانتظرت ثم غابت مدة طويلة وفوجئت بها تأتى بك وتقول لى ما قالته .. أى أنك تشبه الشيطان ، فاعف عنى إذا رسمت صورتك على خاتمها كما طلبت أمامك .

وضحك الجاحظ ولم يغضب ، بل إنه كتب عن هذه الحادثة ، وكأنه يسخر من دمامة وجهه وجحوظ عينيه .

ومرة أخرى رأى سيدة طويلة جدًّا تقف أمامه وهو يأكل مع مجموعة من أصدقائه ، فقال مشاكسًا :

– انزلى وكلى معنا

فقالت هى ساخرة من قصره الظاهر :

– اطلع أنت لترى الدنيا .

وضحك الجميع من الجاحظ ، وضحك هو على نفسه معهم ، فلم يغضب أو يحزن بسبب هذه القامة القصيرة التى كان غيره يعانى من الآلام بسببها – ذلك أنه كان يتمتع بروح صافية وعقل متسامح وقلب كبير .



بداية حياته

ولد الجاحظ فى مدينة البصرة – إحدى مدن العراق الآن – فى أسرة فقيرة ، فقد أباه وهو طفل صغير ، وكان أحيانًا يبيع الخبز أو السمك فى الأسواق ليساعد أسرته الفقيرة على الحياة ، لكنه لم يهمل الذهاب إلى أحد « كتاتيب » البصرة مع الصبية فى مثل عمره ، يتعلم القراءة والكتابة ، ويحفظ القرآن والشعر والنوادر ، وكان أيضًا يذهب إلى سوق « المربد » قريبًا من مدينة البصرة .

كان « المربد » فى هذه الأيام مثل سوق عكاظ الذى اشتهر عند العرب قديمًا ، حيث يذهب إليه الشعراء والخطباء والأدباء ورواة السير والنوادر ، ولأنه كان ذكيًّا وقادرًا على حفظ ما كان يسمعه ، فقد أدهش من يكبرونه سنًّا ، ولم

يكن يضايقه إلا أن يعامله الكبار معاملتهم لصبى ، كان يشعر أنه ليس بالسن الكبيرة وحدها يفهم الإنسان ، وكان يجادل الكبار أحيانًا ، ويثبت لهم فى كل مرة أنه أكبر من سنوات عمره ، وأنه قادر على أن يتفوق فى العلم والأدب على من هم أكبر منه بكثير .

كان يذهب إلى مشايخ مسجد البصرة ، يتعلم منهم ، ويؤجر دكاكين الورَّاقين (مثل المكتبات فى عصرنا الحديث) يقرأ تلك الكتب التى يبيعونها للناس فى المساء ، وفى كل يوم يعود إلى أمه حاملا بين يديه كراسات مكتوبة ، وكانت الأم فى هذه الأيام تندهش وتسأل نفسها عن قيمة هذه الكراسات .

وذات صباح طلب عمرو من أمه طعام الإفطار ، فغابت عنه مدة ، وظن هو أنها تقلى له بيضًا أو سمكا ، أو تجهز له فطيرة ، لكنها جاءت بعد مدة ووضعت أمامه طبقًا عليه مجموعة من تلك الكراسات المكتوبة ، وعندما سألها عمرو عن الفطور أجابته بأنها لا تملك فى البيت غير هذه الكراسات التى يحملها فى ذهابه وعودته .

تألم الجاحظ أو عمرو بن بحر لسببين ، الأول أن بيتهم ليس فيه دقيق أو زيت أو تمر يؤكل ، والثانى لأن أمه

المسكينة لم تقدر قيمة كراساته والجوع يلازمها فى البيت .. خرج إلى مسجد البصرة والتقى بأحد المشايخ الذى سأله عن أسباب حزنه ، فأجاب الشيخ بتلك الحكاية ، لكن الشيخ كان يعرف قيمة الصبى ، فطيب خاطره وأخذه إلى بيته حيث قدم إليه طعامًا وشرابًا ، ثم فاجأه بصرة فيها خمسون دينارًا ، فتعجب الجاحظ وسأله إن كانت كلها له ؟ فهز الشيخ رأسه إيجابًا وقال له :

الشيخ : أنت تستحقها ياعمرو !

الجاحظ : لكنها مبلغ كبير .

الشيخ : أعرف ، لكنك سوف تحتاج إليه .

الجاحظ : ولكن كيف أسدد لك مبلغًا كبيرًا مثل هذا المبلغ ؟

الشيخ : لا تشغل نفسك ياعمرو ، فسوف تكسب أضعافًا مضاعفة ، وتسدد دينك بإذن الله ..

الجاحظ : كيف ؟

الشيخ : مثلك يحتاج إلى رحلة خارج البصرة ، وأنصحك

بمشاركة بعض مشايخ المسجد فى هذه الرحلة ، وسوف ترى .

وفكر الجاحظ فى الرحلة ، اشترى لأمه الدقيق والزبيب والزيت والتمر ، وترك معها ما تبقى من دنانير وهى فى دهشة ، وعندما سألته :

- من أين لك كل هذا المال ياعمرو ؟

أجابها وهو يضحك بحب :

- من الكراريس التى قدمتها لى فى الصباح يا أمى .

ضحكت الأم وهو يحدثها عن لقائه بالشيخ ، وعن تلك الرحلة التى سوف يقوم بها ، أول رحلة فى حياته ، ولم تملك الأم إلا أن تدعو له بالنجاح وتحقيق الهدف .

* * *

بماذا أفادته أول رحلة ؟

كان عمرو بن بحر أو الجاحظ فى الثانية عشرة من عمره ، صبيًّا ضئيل الجسم واثقًا فى عقله ، لكنه أيضًا كان أصغر من فى الرحلة ، وكان يشعر أنهم يتعاملون معه كمجرد صبى جاحظ العينين ، وربما حسبوه أيضًا قليل المعرفة والعلم ، لكنه بعد أيام أدهشهم جميعًا ، كانوا فى أوقات الراحة يجلسون حوله ويسمعون أحاديثه وحكاياته ، يروى لهم الروايات والأشعار والنوادر ، فيتأكد لهم فى كل مرة أنه نابغة عصره ، يحدثونه عن خبراتهم ورحلاتهم فيسمع ، ويرد عليهم بذكاء عقله .

وكانت الرحلة طويلة ، عبرت صحراء الحجاز ، واتجهت إلى بلاد البحرين حيث الأرض الخصبة كثيرة الثمار ..

وكانت القافلة تستقبل فى كل مرحلة أعرابًا من أقاليم بعيدة لكل منهم حكاية ، وعند كل راحل خبرة بحياة المجتمع الذى عاش فيه .

كان الجاحظ يسجل كل جديد فى كراريسه ، وعندما فكرت القافلة فى الرجوع إلى البصرة كان الجاحظ قد أصبح صديقًا لرجال قافلة أخرى ، دعوه ليشاركهم رحلتهم إلى أماكن جديدة ، فلم يتردد ، واستمر معهم ، وصل إلى القطيف ونجد ، والتقى بالشعراء والرواة ، وسمع الكثير من الأساطير العربية وأخبار العماليق القدماء وحفظ أشعار القدماء وعشاق ليلى .

كانوا قد اطمأنوا إلى عقله الذكى فذكروا له الكثير من طباع الحيوان والبخلاء والعلماء ، وكان فى كل يوم يكتشف شيئا جديدا ، لكنه اكتشف فى هذه الرحلة شيئًا أساسيا أفاده فى حياته بعد ذلك ، ذلك أنه عندما كان ينال إعجابهم به وبقصصه ورواياته ، كان يزداد ثقة فى نفسه وعقله ، ويتأكد كما قال له أحد الرجال : إن الرجل لا يقاس بطوله وعرضه ، أو بجمال وجهه .. الرجل يقاس

بجمال الروح ووسامة النفس ويقظة العقل ، وها هوذا بعد عامين من معاشرة هؤلاء الغرباء ، وانتهاء الرحلة ، قد أصبح فتى جديدًا واثقًا فى نفسه ، معتزًّا بعقله . وبقيمة ما كان حريصًا على تسجيله فى كراريسه وأوراقه من أخبار القدماء وأشعارهم ، وعادات القبائل وأفكارهم .



صانع الشعر والشاعر

عندما رجع الجاحظ إلى البصرة ، فكر فى أن يكسب عيشه بتأليف الشعر ، كان العصر عصر شعراء ، يكفى أن يمدح الوالى بقصيدة ليكسب الكثير ، وقد جرب الجاحظ أن يكسب بالشعر ، لكنه لم يحقق الهدف .. وبينه وبين نفسه عرف تلك الحقيقة ، ليس كل من ينظم الشعر بشاعر ، فالشاعر يحتاج إلى موهبة خاصة ، ولأنه كان صادقًا مع نفسه ، ومع من عاصروه ، قالها بجرأة وشجاعة وسط مجموعة من الأدباء والشعراء والعلماء أو. قالها بخجل وتواضع :

الجاحظ : أنا أعلم أننى لست شاعرًا .

صديقه : لكنك تقول شعرًا يا عمرو ..

الجاحظ : لا .. ليس ما أقوله إلا شكل الشعر ، هو صنعة أكثر منه موهبة ..

ودهش الجميع ، لكنه أضاف :

– أين ما قلته من شعر بشار بن برد أو أبى نواس ؟

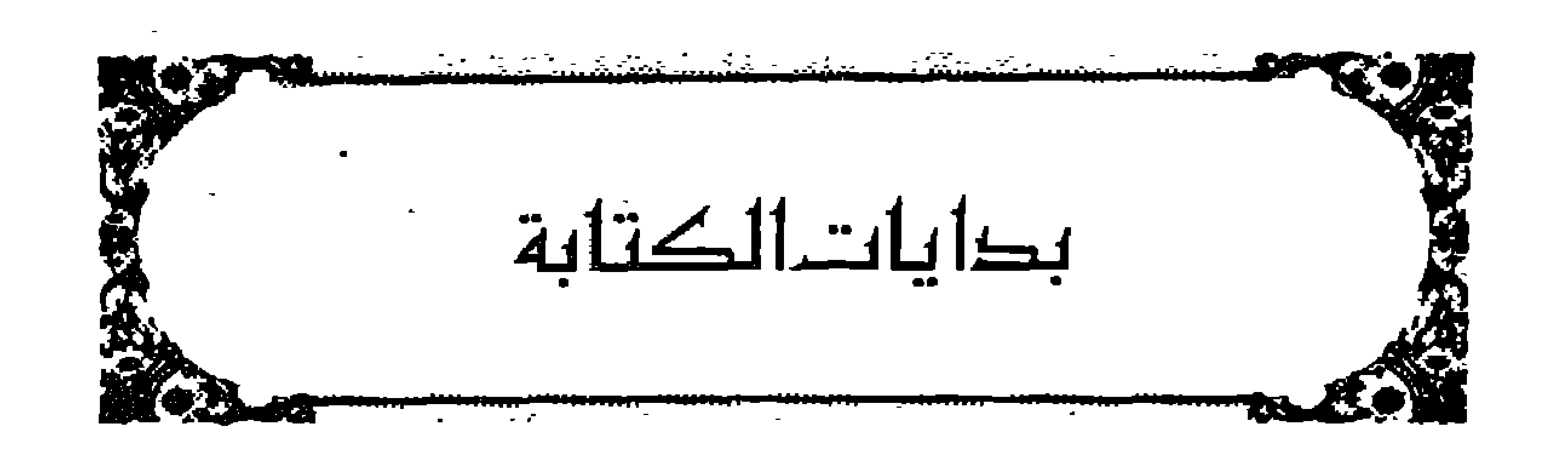
كان صادقًا وشجاعًا فاستحق تقدير الجميع ، وكان أمينا مع نفسه عندما اكتشف أنه على استعداد حقيقى لرواية النادرة والفكاهة والقصة ، وأنه يعرف الكثير عن عادات وطباع الناس والحيوان والطير . كان يسير وحيدًا فى شوارع البصرة ، يسأل نفسه إن كان يقدر على تأليف كتاب مثل ابن المقفع ، أو ابن قتيبة ، ربما لو سافر فى رحلة جديدة يستطيع .

ولأنه كان يعرف نفسه جيدًا ويعرف قدرته الحقيقية ، قرر أن يمتنع عن فكرة الحياة بالشعر .. كان قراره مع نفسه قاسيًا ، لكنه كان صادقًا عندما اكتشف فى هذه السن المبكرة حقيقة نفسه .

ولعله فى تلك الأيام تألم أيضًا ، لأنه منع نفسه من أن يعيش بوهم كاذب فى أن يكون شاعرًا مثل هؤلاء الشعراء

الكبار، الذين كانوا يعيشون فى عصره ويملئون الدنيا بأشعارهم وقصائدهم.. وها هوذا الجاحظ يعلمنا درسه الجديد، فصانع الشعر ليس بشاعر، والصدق مع النفس شجاعة، قد يشعر الإنسان ببعض الألم، لكنه الألم الذى يدفع إلى الأمام ، ويكشف عن حقيقة الإنسان الموهوب الذكى .





سأل نفسه مرة :

– وحتى ولو كنت أعرف الكثير ، وأحفظ الكثير ، فهل هذا كاف لأكون كاتبًا ؟ .

وجاوب نفسه

– ولماذا لا أحاول ؟

وحاول عمرو بن بحر أو الجاحظ .. كان يكتب الأوراق فى المساء ويمزقها فى الصباح .. لكنه كان يجد نفسه مرة أخرى مستعدًّا للكتابة فيكتب ، لكنه لم يكن يطمئن تمامًا إلى ما كان يكتبه .. كان يراجع كل سطر كتبه ، يعيد كتابته من جديد بقلق وخوف .. ولأنه كان طموحًا فقد كان يرغب فى أن يكتب بطريقة مختلفة ، طريقة تخصه وحده .

كان هناك ابن المقفع يكتب ، وكان هو فى البداية يخشاه ، يخشى أن يكتب مثله أو أقل منه .. وكان فى بعض الأحيان يكتب كلامًا ويقرؤه لبعض الأصدقاء ، فلا يهتمون به ، فجرب أن يكمل كتابًا ويقرؤه لنفس الأصدقاء على أنه من تأليف ابن المقفع .

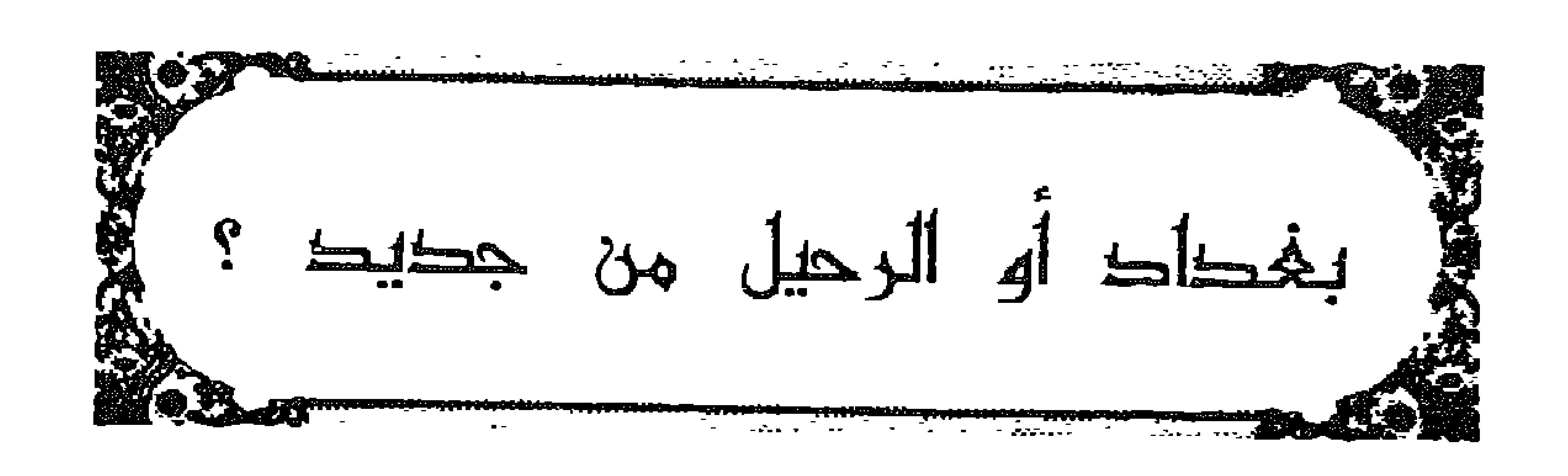
– هو كتاب لابن المقفع فاسمعوه .

وعندما ينتهى يسمع منهم المديح والحماس لابن المقفع ، ويندهش ، هل لأن ابن المقفع كاتب كبير يفسرون كل شىء لصالحه .. إنهم لا يعرفون حقيقة الأمر ، إذن فليجرب مرة أخرى .

وجرب الجاحظ عدة مرات ، يكتب ويذيع ماكتبه على أنه من تأليف ابن المقفع فينال كل الإعجاب والتقدير .. وذات مساء قال لنفسه :

– مادامت كتاباتى تنال استحسانهم فأنا كاتب .. وعلىَّ أن أواجههم بهذه الحقيقة .

* * *



بغداد أو الرحيل من جديد ؟

كانت بغداد حلمًا فى عقل الجاحظ ، وبين الحلم والحقيقة مسافة كبيرة لا يعرفها ، أو يعرف كيف يستفيد منها إلا كل صاحب عقل وموهبة ، كانت بغداد فى هذا الوقت عاصمة الدنيا بأسرها ، كانت فيها حرية القول والتأليف ، والحوار والخلاف فى الآراء إلى أبعد الحدود .. ترجمت كتب اليونان والفرس والسريان والرومان وغيرهم ، وكثرت فى بغداد والبصرة والكوفة مجالس العلماء والأدباء ، وكانت المناظرات تدور حول كل شيء ، وسادت الفلسفة والمنطق ، وعلم الكلام والطب والرياضة ، وعلم الحيوان والنبات .

وعندما وصل الجاحظ إلى بغداد وجد الشوارع مزدحمة ، والجمال تمشى على مهل مخافة هذا الزحـــام ، رأى

الغلمـــان بملابس الجوارى ، والجند من خراسان أكثر من جند العرب .

ويبدو أنه لم يعجب فى هذه الزيارة السريعة بتلك المدينة ، فخرج فى رحلة جديدة لا هدف لها غير المشاهدة وزيادة المعرفة، كانت الرحلة هذه المرة إلى تدمر وديار بكر، دخل مع زملائه فى طرق صحراوية، وأخرى بجوار نهر الفرات أوالبرارى..

تعرف بالأرض السوداء التى يخرج منها اللهب ، ورأى الثلج على قمم جبال فى بلاد ليست شديدة البرد ، رأى على ضفاف الأنهار والجداول أنواعًا غريبة من السمك ، وفى السماء رأى النسور والصقور والغربان ، أشياء لم يكن قد رآها أو سمع عنها من قبل ، رأى الثعالب والذئاب والحيَّات ، وسجَّل فى كراريسه كل ما رآه ليكون بعد ذلك كتابًا عن الحيوان ، كتب عن بعض الأحجار والمعادن مثل النحاس والرصاص ..

لقد شعر أن الرحلة بالنسبة له أفضل من الإقامة فى مدينة رائعة الحسن ، مليئة بكل أنواع الترف ومظاهر الثراء والعظمة ، كان عليه أن يزداد علمًا بكل شىء ، قبل أن يبدأ حياته ككاتب ملأ الدنيا من حوله بالدهشة والإعجاب ،

ذلك أنه بعد ذلك كان يجلس وسط جماعة من الأمراء أو العلماء أو الشعراء ، فيحدثهم فى كل شىء بنفس الثقة ، يسألونه عن اللصوص فيحدثهم عن أشكالهم وأنواعهم وطباعهم .. يسألونه عن العقائد فيفيدهم بعقل واع ، ويأسرهم عندما يتكلم عن الرقص والموسيقى والغناء ، يحدثهم عن ركوب الخيل والمبارزة حديث العليم ، يسألونه عن التاريخ والشعوب القديمة فيظهر من حديثه قوة معرفته بتاريخ عاد وثمود وقبائل الأعراب والفرس والروم ..

ولقد قيل عنه إنه فى استطاعته أن يكون أستاذاً فى أى علم ، وأن ذكاءه الفطرى ، ولسانه العربى ، وخفة ظله ، وصفاء روحه .. كل ذلك يساعده على أن يكتب فى كل علم بنفس الدقة والسهولة والقدرة على الإقناع .

هل كانت رحلاته وملاحظاته الأولى سبباً فى كل هذا النبوغ الذى ظهر فى كل ماكتبه الجاحظ ؟ ! سوف نرى .

* * *

النبوغ والتحدي والاختيار

يقف الجاحظ مع نفسه بين الحين والآخر .. فلا يسرّه وجههُ ولا عيناه الجاحظتان .. وربما تقبله الناس على مضض ومرارة .. وأحسّ هو بذلك في عيونهم .. لكنه سرعان ما كان يصرف عن ذهنه هذا الإحساس القاتل بالدمامة .. لتشرق شمس المعرفة من أعماقه .. وينجح في جذب كل من حاول أن يزم فمه من رؤيته .. فيقبل الناس عليه ليستمعوا إلى علمه .. وكلماته ..

لقد ترك الجاحظ للمكتبة العربية والإسلامية ما يزيد على ثلاثمائة وخمسين كتابًا .. وفي كل المجالات كتب ، في العلم والأدب ، والسياسة والدين ، والتاريخ والرحلات .. والاجتماع وغير ذلك من العلوم ، باختصار كان الرجل

كما يقولون موسوعة ، أى أنه عرف فى كل علم وفن بنفس الدرجة من الإتقان والجودة ..

ومن الصعب أن نذكر حتى عناوين تلك الكتب ، يكفينا أن نذكر لك أشهر هذه الكتب، مثل كتاب « البخلاء » وكتاب « الحيوان » وكتاب « التربيع والتدوير » .. لكن هذا لا يغنى عن قراءة بعض هذه الكتب .

ما يهمنا هو أن نزداد معرفة بشخصية عمرو بن بحر بعد أن أصبح رجلا يثق فى قدرته على تأليف الكتب ، وكان من السهل عليه أنه يؤلف كما قلنا ، وكان اسم الجاحظ قد وصل إلى أذن الخليفة المأمون ، قرأ له الخليفة كتابًا فأعجبه ، وأرسل يدعوه إلى قصر الخلافة ، وعندما قابله الخليفة حدثه عن إعجابه بأسلوبه ، وبراعته فى عرض أفكاره ، شكر الجاحظ خليفة المسلمين ، وعبَّر له عن ذلك الشكر ، وفكر فى الانصراف ، لكن الخليفة أمره بالبقاء ، وعرض عليه أن يتولى ديوان الرسائل ، وهو منصب كبير فى ذلك العصر ، لا يرقى إليه إلا من بلغ أعلى درجة من الثقافة والذكاء والسياسة والأدب ، منصب يزيد فى أيامنا عن منصب الوزير ، قبل الجاحظ المنصب – طبعًا – لأنه من غير المعقول أن يرفض

تأدبًا أمام الخليفة ، لكنه بعد ثلاثة أيام فى هذا المنصب الخطير سأل نفسه :

– ومالى أنا بديوان الرسائل ؟ لقد اخترت الكتابة فهل أصلح للمناصب الكبرى ؟

كان سؤال عمرو بن بحر لنفسه يعنى أنه قرر واختار ، اختار القلم والكراريس والتأليف ، هو رجل حر فى حركته وتفكيره ، ولابد أن هذا المنصب الكبير سوف يجعله حريصًا فى كل شىء ، وقورًا وهادئًا ومطيعًا ، وربما يجد نفسه طرفًا فى الخلافات السياسية التى كانت سائدة فى هذا العصر بين الفرس والعرب ، بين الشيعة والسنة ، بين المعتزلة وغيرهم من الفرق .. بين وبين ، وهو رجل مختلف ، رجل يعشق الكلمات والكتب ، فهل يصلح للوظيفة الكبيرة مثل هذا الرجل ؟ ! لقد جاوب نفسه ، واعتذر عن ذلك المنصب ، وخرج من ديوان الخليفة المأمون ، وكأنه عصفور يهرب من قفصه الذهبى .. لعله طار فى شوارع بغداد بعيدًا عن القصر والحراس .

* * *

مواجهة الموت

لكن كاتبًا شهيرًا مثل الجاحظ كان له أصدقاء وأعداء من أهل السلطان ، كان الجاحظ فى كبره صديقًا لأحد الوزراء ، وحدث أن غضب الخليفة على هذا الوزير ، وعين وزيرًا جديدًا ، وقبض الوزير الجديد على الوزير القديم صديق الجاحظ ، وقتل الوزير القديم ، فخاف الجاحظ على نفسه وهرب ، لكن العسكر قبضوا عليه وقيَّدوه بالسلاسل ، وذهبوا به إلى الوزير الجديد .

كان من الممكن أن يقتل الجاحظ أيضًا فى هذه الساعة لولا أنه استطاع بخفة دمه وفصاحته أن يضحك كل من كان موجودًا فى مجلس الوزير .. واستطاع أن ينال إعجابه أيضًا بذكاء عقله ، فأنعم عليه وطمأنه على روحه ، وخرج

الجاحظ من المجلس وهو لا يصدق أنه نجا بحياته من الموت ، كان يعبر نهر دجلة مبتعدًا عن قصر الوزير الذى عفا عنه ، ويقول لنفسه بصوت مسموع ، وهو يتلفت حوله خوفًا من سماع الناس صوته :

– هؤلاء الناس لا أمان لهم ، سوف أبتعد عنهم جميعًا ما تبقى لى من العمر ، يكفينى أن أسجل فى الأوراق ما شاهدته من طباع الناس والطير والوحوش ، سوف أكتب كتابًا عن الحيوان .

بمثل هذا الكلام كان الجاحظ يقول لنفسه، وعندما وصل إلى داره جلس وفكر إن كان قد أخطأ عندما كان صديقًا لوزير، أم أنه أخطأ عندما فكر أن يبتعد ثانيا عن كل صاحب سلطان، وجاوب نفسه بصوت مطمئن هذه المرة:

– لم تخطىء ياعمرو ، كنت صديقًا للوزير الأول لأنك كاتب وصاحب رأى فى كل ما تراه ، وأنت الآن تبتعد عن الوزير الجديد حتى لا يقال إن عمرو بن بحر كان بلا رأى ، وإنه لم يكن صادقًا فى أفكاره ، لكنك ياعمرو لست فارسًا مقاتلاً ، ولا سياسيًّا محترفًا ، أو حتى رجل سلطان ، فروسيتك ياعمرو فى قلمك ، وسياستك فى أفكارك المكتوبة ، وسلطانك

بقدر ما تؤثر كتاباتك على العقول التى تقرأ ما تكتبه ، وأنت الآن ياعمرو بن بحر رجل كبير السن ، وأنت مسئول عن عمرك وحياتك باستخدام عقلك .

كانت مواجهة الموت بالنسبة لعمرو بن بحر قاسية ، هو رجل ضاحك وذكى ، وهو أيضًا يعيش فى عصر غريب ، فالترك والفرس والعرب يتسابقون على السلطان تحاول كل طائفة أن تحكم ، والخلافات فى الرأى مطلوبة ، لكن عندما يتحول الخلاف بين الناس إلى درجة القتل ، قتل من يختلفون ويتنافسون فى الأفكار .. فى هذه الحالة لا يكون هناك أمان ، هو رجل يؤمن بحريته فى التفكير ، ويؤمن أيضًا بحرية الخصوم فى التفكير ، وقد اعتزل تلك الخلافات الحادة ، ليس خوفًا ، وإنما لأنه عندما تكثر الخلافات ، ويتعصب كل فريق إلى فكرته لدرجة الاستعداد لقتل الخصوم ، فعلى العقلاء أن يرتفعوا فوق هذه الخلافات ، وعليهم واجب إصلاح هذا الفساد بالنصح والتنبيه والكتابة أيضًا .

* * *

العقل والتجربة عند الجاحظ

إلى جانب حبه الشديد لحرية التفكير ، كان الجاحظ يؤمن بالعقل ، كان يدعو الناس إلى استخدام العقل فى كل شيء ، كان يؤمن بالعقل أكثر من بقية الحواس ، مثل اللمس أو النظر ، وكان يقول ، إن الحواس تخدع ، أما العقل فهو الطريق السهل إلى المعرفة ، ولقد سبق الجاحظ الفيلسوف الفرنسى ديكارت بعدة قرون عندما توصل بواسطة العقل إلى تلك العبارة الشهيرة « أنا أفكر فأنا موجود » .

بل إنه وصل إلى الإيمان بالله بواسطة العقل وحده ، عندما كتب يقول : أنا موجود وليس وجودى بنفسى ، فأنا غير كامل ، وإذن فالكامل الذى أوجدنى هو الله ، فهو موجود .. ولابد أنك سمعت ديكارت وفلسفته فى الشك ،

لكنك لا تعرف أن فيلسوفًا عربيًّا سبقه بمئات السنين ، وقال نفس الكلمات قبل أن يقولها فيلسوف فرنسى حصل على الشهرة .

وكان الجاحظ يعتمد أيضًا على التجربة – يجرب بنفسه ويسجل ما توصل إليه فى فهم الطبيعة أو الحيوان والنبات والإنسان ، ولا نبالغ أنه من أوائل الذين وصلوا إلى مذهب التجربة العملية قبل فلاسفة أوربا وعلمائها فى القرون التالية . إلى جانب ذلك كان دقيق الملاحظة ، قوى الحجة ، خفيف الظل مرحًا .. كان الجاحظ عالمًا وأديبًا وفيلسوفًا وعاشقًا للرحلات والسفر ، لقد تغلب على عاهته أو العيب الذى ورثه من جحوظ العينين ودمامة الخلقة وتفوق على الآلاف من ذوى الوجوه الجميلة والأجسام القوية فى عصره .

* * *

نهاية الرحلة

وبعد أن تخطى التسعين من عمره أصيب بمرض جعله عاجزًا عن الحركة المعتادة ، كان من الممكن أن يريح نفسه فى هذه السن ، وقد أصبح يمتلك ضيعة وبيتًا كبيرًا ، لكنه ظل يقرأ ويكتب ..

وذات مساء وهو فى وسط أوراقه وحيدا سقطت عليه مجموعة من الكتب الكبيرة . وفى الصباح وجدوه ميتًا تحت أكوام الكتب ، وعلى وجهه ابتسامة هادئة ، لقد كان يعشق الكتب فى حياته وها هى ذى الكتب تغطيه فى آخر لحظات عمره ولابد أنه كان سعيدًا بتلك النهاية ، بعد أن ترك لنا مئات الكتب ، ولابد أن روحه الآن تحوم حولنا ،

وتشعر بالسعادة ، لأنه مازال يشغلنا بأفكاره حتى اليوم وبعد مرور ما يزيد عن الألف عام منذ رحيله .

* * *

رقم الإيداع	١٩٩٤ / ٢٦٦٩
الترقيم الدولى	ISBN 977 - 02 - 4359 - 0

٧ / ٩٣ / ١٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



عظماء عاشوا بالأمل

• نماذج من العظماء العباقرة الذين فقدوا واحدة أو أكثر من حواسهم.. لكنهم ضربوا المثل فى التمسك بالأمل.. وتحدى هذا الفقد.. والإصرار المتميز.. ربما أكثر من الأصحاء.

١ - توماس أديسون
٢ - أبو العلاء المعرى
٣ - فرانكلين روزفلت
٤ - محمود أبو الوفا
٥ - هيلين كيلر
٦ - صبحى الجبار
٧ - الجاحظ
٨ - حسان بن ثابت
٩ - اليزابيث براوننج
١٠ - لويس بريل
١١ - عبد الرحمن بن عوف
١٢ - طه حسين
١٣ - حسين القبانى
١٤ - بيتهوفن

دار المعارف